"يسوع التاريخ ومسيح الإيمان" ويبقى العلم في خدمة اليقين

الأب أيوب شهوان

مقدمة

يرتبط "البحث حول يسوع التاريخي"، وهو أمر حديث نسبيًّا، بمناخ عصر النور، ويتواصل حتّى يومنا بوتيرة سريعة، فتتضاعف المؤلّفات والمنشورات التي يعتبر أصحابها أنهم "اكتشفوا" أمرًا ما منوِّرًا حول حياة يسوع، فتولّد شعورٌ لديهم – وقد يكون ذلك عن حق– بأنهم أبطالُ نزْعِ التراكمات التي طمست الحقيقة، وبالتالي روّادُ جلاءِ الوقائع التاريخية، مقابل آخَرين يتلمّسون الأمر عينه بجدية وكدّ مماثلَين، ولكن بخفر واتّضاع وروح عبادة.

في هذا الإطار، قد يتسلّل شيءٌ من القلق إلى النفوس المؤمنة بيسوع، الذي عرفتْه من الأناجيل ومن تعليم الكنيسة، والتي ترى أن صورةً جديدةً، وإن كانت ما زالت تبدو ضبابية وغير واضحة المعالم، أخذت تلوحُ في أفق الأبحاث القويّة أو حتّى الجسورة، إلى حدّ أنّ شعورًا بالبلبلة ينتابها، فيقضّ مضجعَها شيءٌ من الشك المضني أحيانًا.

لكن، إذا نظرنا بتجرّد إلى الأمر، واستعرضنا مسار الأبحاث حول يسوع التاريخي وما آلت إليه، لتبيّن لنا أنّ الربحَ وفيرٌ، وأنّ صورة يسوع التاريخي آخذةٌ في التبلور والوضوح، وهذا ما يجعل حدثَ التجسد أكثر سطوعًا، ويسوع الإنسان أكثر قربًا، والأحداث المرتبطة به أحداثًا لنا ومن أجلنا. هذا يعني، أن حركة البحث عن يسوع قادرةٌ على أن تبلغ بنا إلى نتائج تهدم التطاول، وتزيل الارتياب، وترسّخ الإيمان، ولا داعيَ بالتالي للـ"خَوف"، لا من المتجاسرين، ولا

على يسوع. في مواجهة التيارات التي لا هدفَ علميًّا لها، بل تشكيكيّ وتهديميّ، تبقى كلمة يسوع، "طوبى لمن لا يشك فيّ" (مت ١١:٦)، الداعمَ المعنويَّ والفعليَّ للمؤمن الحقيقيّ.

١ – لماذا "البحث حول يسوع التاريخي"؟

قد يشعر المؤمن أنّ "البحث حول يسوع التاريخي" غير ضروري للإيمان، وأنّ وراء هذا الموضوع أناس ينتمون إلى أوساط خارجة عن المعتقد المسيحي أو حتى معادية له. لكن هذا الواقع يفرض ذاته كتحدٍّ لا مفرّ منه، وكمعركةٍ لا بدّ من خوضها، خاصةً وأن التقليد المسيحي بالذات في بداياته قد مهّد الطريقَ لطرح هذا الموضوع، وأنّ الإيمان المسيحي بالذات يسمح بأن نَتَبَيَّن فيه دفعًا إيجابيًّا باتجاه البحث العلمي بكل ما للكلمة من معنى.

من دون شك، تحمل عبارة "يسوع التاريخي" بالذات آثاراً جليّةً لنشأتها الجدليّة. في الكنيسة القديمة كان من غير المعقول طرح هذا الموضوع بهذه الجسارة أو بهذه الجرأة. في الواقع، تفترض الصفة "تاريخي"، وبشكل متعَمَّد، الوقوفَ في وجه "يسوع الإيمان"، "يسوع غير التاريخي"، "يسوع التقليد المسيحي"، الذي ينبغي رفضه.

يمكن العبارة "يسوع التاريخي" أن تحمل معنيَين مختلفَين، وفق ما يريد الذي يستعملها أن يشير إلى "يسوع فاعل التاريخ"، أو إلى "يسوع موضوع التاريخ"؛ إنها مصطلحات لا تخلو من أساس بيبلي: أنظر، مثلاً، في أعمال الرسل التعبير "يسوع هذا" (οὑτος ὁ Ιησους: أع ١: ١١؛ ٢: ٣٢، ٣٦)، أو في الرسالة إلى العبرانيين العبارة "في أيام حياته المائتة"، حرفياً، "في أيام بشريّته" (عب ٥: ٧).

لقد اهتمّ الإيمانُ المسيحي بقوّة بيسوع "الأرضيّ"، بالتوافق بين الرب الممجّد وبين الإنسان يسوع، وبالتزامه الواعي والحر والشخصي بحدث الصليب. لكن، هل يتضمن هذا الاهتمام الشديد بيسوع "الأرضيّ" اهتمامًا أيضًا بيسوع "المؤرَّخ"؟ إنّ ما ينتج مباشرةً عن ذلك هو اهتمام ذات طابع دفاعي مقابل

المصادر، ومقابل الأناجيل بشكل جوهري. في الكنيسة القديمة، كان للأناجيل موقعها، ليس فقط على الصعيد الداخلي، أي في الليتورجيا، والتعليم الديني، والتأمل، والعبادة، ولكن أيضاً على الصعيد الخارجي، أي مع غير المسيحيين.

يبدو للناظر وللسامع أن المعضلة مفروضة من الخارج، وأنها، من وجهة النظر التأريخيّة، تدفع فقط إلى المطالبة بمصداقيّة النصوص الإنجيليّة. لقد جعلت هذه المعضلةُ الكنيسةَ القديمة، ودون أن تكون جاهلة للمسائل التي تطرحها المحرَّرات المختلفة، ترى بطريقة هي بالأحرى غير متمايزة بالنسبة إلى كيفيّة إمكانيّة النظر إليها في أيامنا.

يُبرز هذا الاهتمامُ التأريخيُّ ذاتُ الطابع الدفاعيّ، ومنذ البداية، حتّى ولو بشكل محدود، اهتمامًا أكثر شموليّة وإيجابيّة بالناحية "التأريخيّة" لحياة يسوع. بين العوامل التي أدّت إلى هذا، يمكننا أن نشير بنوع خاص إلى اثنين:

– من ناحية أولى، الحاجة إلى وضع مجيء المسيح في إطار التاريخ الكونيّ، والدينيّ، والسياسيّ، مع فكرة "ملء الأزمنة" (غل ٤ : ٤ :το πληρομα του χρονου)، التي لم تفهمها الكنيسة القديمة كمرادف بسيط لـ"نهاية الزمن"، بل كذروة "الإعداد الإنجيلي".

– من ناحية ثانية، وأيضًا ضمن رسالة يسوع، المجهود لفهم نمو الـ"تدبير" التاريخيّ الخلاصيّ؛ الاهتمام بـ"سرّ حياة المسيح"، الأحداث الفرديّة للسرد الإنجيلي، ومعناها الخلاصي، وترابطها المتبادل؛ يمكن التفكير مثلاً بمسألة صلاحيّة الشريعة إبّان رسالة يسوع وفي الأزمنة الأخيرة للكنيسة.

من هنا المجهود لإعادة بناء سرد أكثر دقة وكمالاً من السرد القانوني، واضعين معًا، ليس فقط كل المعطيات الإنجيليّة، بل أيضًا كل المصادر البيبليّة وغير البيبلية المتوفرة (مثلاً، بعض مؤلفات يوسيفوس فلافيوس وغيره).

يبيّن وجود عناصر مدوَّنَة، ومنذ البدايات، حول تاريخية يسوع، أنّ الكنيسة القديمة كانت متنبّهةً للأمر، مما يعني وجود بعض عناصر التواصل مع البحث الحديث، ويفسّر كيفية دخول المؤمنين فيه؛ لم تكن المسألة فقط ردًّا دفاعيًّا على

إثارةٍ آتيةٍ من الخارج، بل أيضًا دفع طبيعيّ إلى الإيمان بالذات، إعدادًا لفهم عمل الله الخلاصيّ في التاريخ ومن خلال التاريخ[١].

استنادًا إلى تْرُولْتْش (E. Troeltsch)[٢]، يمكن اختصار جوهر المنهجيّة التاريخيّة التي على نقيض المنهجيّة العقائديّة، بالمبادئ الثلاث التالية :

– "النقديّة" (critique)، أي الشك المنهجي بما هو معطى من التقليد؛

– "المماثلة" (analogie)، " المماثلة المبدئية لكل الأحداث التاريخيّة"؛

– "السببيّة (causalité)، أي ضرورة إعادة توجيه كل أمر تاريخي إلى أمور تاريخيّة أخرى.

من دون شك، وبهذه الصيغة، إذا تمّ الانطلاق من الفرضيّة أن كلّ أمر من التاريخ يجد تفسيره بشكل حصريّ انطلاقًا من التاريخ نفسه، فإنّ تاريخًا مقفلاً على ذاته، غيرَ مفتوح على عمل الله الخلاصي، نكون عندها بإزاء فكرة مسبقة عقلانيّة أن الإيمان المسيحي غير قابل للتقاسم.

لكن البديل بالنسبة إلى المؤمن، ليس الفهم أو عدم الفهم من دون التاريخ وخارج التاريخ. لا يمكن أيضًا المؤمن أن يتنكّر لمتطلّبة فهم عمل الله "في التاريخ"، الذي يندرج في الأحداث البشريّة، التي، وإن عرفت أحيانًا بعض القفزات والتقطّعات، فإنّ سيرها التدريجي يتواصل بلا انقطاع.

٢ – مستقبل "البحث حول يسوع التاريخي"

يفترض السؤال حول مستقبل "البحث حول يسوع التاريخي" بالضرورة، سؤالاً آخرَ حول تقييم النتائج التي تم البلوغ إليها حتى الآن.

(١) راجع المجمع الفاتيكاني الثاني، دستور عقائدي، "كلمة الله"، ٢.

(٢) E. Troeltsch, "*Metodo storico e metodo dogmatico in teologia*", *in Filosofia e Teologia* 5 (1991) 95-115; cf. G. Segalla (ed.), *Cento anni di studi biblici (1893-1993). L'interpretazione della Bibbia nella Chiesa. Convegno di studio* : Padova 17-18 febbrario 1994, pp. 37-49 = *Studia patavina* 41 (1994) 341-398: "Un secolo di metodo storico nell'esegesi cattolica (1893-1993)" .

لا تدعنا صورة يسوع غير مبالين، بل تبهرنا باستمرار، وتجعل أيضًا غير المؤمنين قلقين؛ بالمقابل، يبقى قويًا في الضمير الحديث الادّعاءُ بإدراج يسوع ضمن حدود ما هو إنساني.

مقابل التيارات التي كانت تجعل من يسوع رمزاً لبعض القيم الإنسانيّة والاجتماعية، دخلت موجةٌ جديدةٌ ذاتُ ميلٍ تَدَيُّنيٍّ غامض، تبحث في يسوع عن دافع للتسامي (Transcendance)، وتُعطي الأفضليّة فيه للبعْد الحكمي(٣).

ففي حين أن التقليد المسيحي، ومن خلال الأفق التاريخي الخلاصي للـ"تتميم"، ينجح في أن يُبقيَ معًا التاريخيَّ والأبديَّ، فإنَّ عبرانيّةَ يسوع وجِدّتَه الخلاصيّةَ الجذريّة، خارج النظرة الكريستولوجيّة، تجعل من غير الممكن تحاشي الانقسام بين "حقيقة" يسوع وبين "شخص" يسوع:

هناك، من جهة أولى، الادّعاء بإعادة بناء يسوع كشخص تاريخي محصور بالكامل ضمن حدود زمانه وثقافته، ومجرّد من المعنى بالنسبة إلى ثقافتنا؛

وهناك، من ناحية ثانية، محاولة تأمين قيمة شموليّة وخالدة تفصله عن واقعيّة التاريخ، ونزع الصبغة العبرانيّة عنه، وتحويله إلى حامل قيم كونيّة.

حاسمةٌ هي النتائج التي حققها العديد من المؤلفين، البروتستنت أولاً ثم الكاثوليك، الذين أكّدوا أن الأفق الإسكاتولوجي حاسم بالنسبة إلى تفسير رسالة يسوع، لكن الذي يُعنى به الإسخاتون "الذي يتحقق"، والذي يتمّ في سر شخص يسوع بالذات، هو إسكاتولوجيّا تتضمّن الكريستولوجيّا وأيضاً الإكليزيولوجيا. يمكن القول إن معضلة إعادة تكوين يسوع التاريخي تبدو –وعن حق– مفروضةً، وفي بعض المحطات الأساسيّة، محلولةً بطريقة تجعل الأبحاث المتتالية غير قادرة على وضعها بشكل جدّيّ على بساط البحث.

(٣) J. Delorme (ed.), *Les paraboles évangéliques. Perspectives nouvelles* (Lectio Divina, 135), Paris 1988, pp. 19-60: "Tendances récentes dans l'interprétation des paraboles".

يندرج النقل التاريخي والتفسير اللاهوتي الواحد تلو الآخر. لقد وجّهت نظرةٌ إيمانيّةٌ كريستولوجيّةٌ عَمَلَ الكثير من البحاثة؛ لكن هذا لا يعني أنّ الإيمان قد حلّ مكان البحث التاريخي؛ لقد حثّ الإيمانُ العقلانيّةَ التاريخيّة وغذّاها، دون أن يفرغها إطلاقاً من المتطلبات المنهجيّة التي هي خاصتها(٤).

خاتمة

نختم هذه المداخلة السريعة موردين ما أقر به بولتمان الذي قال سنة ١٩٢٦: "إن الشكّ في أن يسوع قد وُجد فعلاً هو من دون أساس ولا يستحق أن يُدحَض. من المؤكد أنه هو في أساس الحركة التاريخيّة، التي نتلمس وجودها من خلال الجماعة المسيحيّة الأولى في فلسطين"(٥). في السياق عينه يضيف هانس كونغ: "كل تلاعب بالمسيح، وكل تحويل له إلى عقيدة، أو إلى أسطورة، يصطدم بالتاريخ. ليس مسيح المسيحيّة. فكرة خارج الزمن، مبدأ صالحًا أبدًا، خرافة ذات معنى عميق. مسيح المسيحيّة هو في الواقع شخص حقيقي، بشريّ وتاريخي: مسيح المسيحيين ليس سوى يسوع الناصري. بهذا المعنى، ترتكز المسيحيّة أساساً على التاريخ، والإيمان المسيحي هو أساسًا إيمان تاريخي. فقط لكون المسيحيّة إيمانًا تاريخيًا، استطاعت أن تفرض ذاتها منذ البدء على كل الأساطير، على كل الفلسفات، وعلى كل العبادات السريّة"(٦).

كواقع تاريخي تحقق في مكان وزمان مُعَيَّنَين، يسوع هو شخص عبري عاش في مستهل العصر المسيحي، الذي منه يأخذ التسمية. وفي إطار وحي الله

---

(٤) I. de la Potterie, " Come impostare oggi il problema del Gesù storico ? ", in *La civilità cattolica* 120 (1969) II, 447-463; J. Dupont, " Storicità dei Vangeli e metodo storico dell'esegesi nella costituzione dogmatica *Dei Verbum*, in: *A venti anni dal Concilio. Prospettive teologiche e giuridiche*. Atti del Convegno di Studi: *Il Concilio Vaticano II venti anni dopo*, Catania 21-22 aprile, 5-6 maggio 1983, Fac. Teologia di Sicilia 1984, pp. 51-73.

(٥) R. Bultmann, *Genesi* (Queriniana : brescia 1972) 107

(٦) Hans Küng, *Essere cristani* (Milano 1976) 154.

الخلاصي في التاريخ، يسوع هو المسيح، المخلص المطلق والنهائي، الذي ظهر في التاريخ بمواقف محددة، وعقائد، ووقائع تاريخيّة خلاصيّة.

ينبغي إذًا أن تكون النواة الأولى لكل بشرى كريستولوجيّة تاريخ يسوع المسيح. بمعزل عن النماذج اللاهوتيّة المستعملة، وعن المنهجيات المختارة، يجب أن تتأسس البشرى المسيحيّة على تاريخ يسوع، وتتقابل معه، وتعود إليه بشكل دائم. لذلك يُفهم التاريخ هنا ببُعدَيه: إن بكونه مجموعة وقائع حقيقيّة حدثت في ظروف محدّدة زمنياً ومكانياً، وإن بكونه مكان تدخّل الله الخلاصيّ. في الواقع، لقد أُعطي الخلاص في التاريخ بيسوع المسيح الذي فيه أضحى التاريخ تاريخ خلاص.

مراجع

Bultmann R., *Genesi* (Queriniana : Brescia 1972).

Concilio Vaticano II venti anni dopo, Convegno di studi, Catania 21-22 aprile, 5-6 maggio 1983, Facoltà Teologia di Sicilia 1984, pp. 51-73.

De la Potterie I., " Come impostare oggi il problema del Gesù storico ? ", in *La civilità cattolica* 120 (1969) II, 447-463.

Delorme J. (ed.), *Les paraboles évangéliques. Perspectives nouvelles* (Lectio Divina, 135), Paris 1988.

Dupont J., " Storicità dei Vangeli e metodo storico dell'esegesi nella costituzione dogmatica *Dei Verbum, in: Venti anni dal Concilio. Prospettive teologiche e giuridiche.* Atti del Convegno di Studi: *Il Concilio Vaticano II venti anni dopo*, Catania 21-22 aprile, 5-6 maggio 1983, Fac. Teologia di Sicilia 1984, pp. 51-73.

Fabris R. (ed.), *La Parola di Dio cresceva.* Studi in onore di C. M. Martini nel suo 70 compleanno (Supplementi alla Rivista Biblica, 33), Bologna 1998: "La ricerca del Gesù storico. Bilancio e prospettive", pp. 487-519.

Küng Hans, *Essere cristani* (Milano 1976).

Marguerat D.- Norelli E.- J. M. (ed.), *Jésus de Nazareth. Nouvelles*

approches d'une énigme (Le monde de la Bible 38), Genève 1998: "La quête de Jésus historique. Bilan et perspective", pp. 25-57.

Segalla G., "La "Terza" ricerca del Gesù storico; Il Rabbi ebreo di Nazaret e il Messia crocifisso", in *Studia patavina* 40 (1993) 463-515.

Id., "La verità storica dei Vangeli e la "terza ricerca" su Gesù", *Lateranum N. S.* 61 (1995) 195-234.

Id., "Un Gesù storico incerto e frammentato: guadagno o perdita per la fede ?", *Studia patavina* 45 (1998) 4-19.